العدد 2181 - السنة الثامنة
الجمعة 18 شعبان 1436 - الموافق 5 يونيو 2015
Friday 5 june 2015 - No.2181 - 8th Year

العليمي والأمير قطن

■ وكان العليمي فقيرا ودائم الأسفار طلبا للرزق، وكان بينه وبين الأمير قطن بن قطن أحد امراء عمان صداقة كبيرة ومودة عظيمة حيث كان يزوره من وقت لآخر يمتدحه ويحظى بهبات منه، كان العليمي متزوجا من ابنة عمه «حصة» التي كانت على قدر كبير من الحسن والجمال، وكان هناك شابا ثريا اسمه «دعيج» يقال بأنه من «آل معمر» أسرة النفوذ الامارة في بلدة العيينة، وكان هذا الشاب قد كلف إمراة تبيع وتشتري الحوائج النسائية بأن تراقب فتيات البلدة اثناء مرورها بالبيوت لتخبره بأجمل فتاة ليتزوجها، فلم تجد هذه المرأة أجمل من «حصة» زوجة العليمي فدلته عليها واخبرته بانها متزوجة، فأخذ هذا الشاب «دعيج» يأتي في كل أسبوع مرة واحدة فيطرق الباب وتخرج له أم حصة فيدعي الظمأ وانه بحاجة لماء يشربه فتعطيه وبعد ان يشرب يضع في الإناء قطعا من النقود ويمضي في حال سبيله، أما العجوز أم حصة فإنها تفرح كثيرا بهذه النقود لما هم عليه من فقر مدقع، وعندما تكرر مرور هذا الشاب سألته ام حصة عن غرضه من ذلك فصارحها برغبته في الزواج من ابنتها حين تتخلص من زوجها واعدا إياها بالخير الوفير وحياة الثراء والترف. فأخذت الأم تنفر البنت من زوجها وترغبها في حياة الثراء عند دعيج، وربما تكون حصة قد اقتنعت بعض الشيء من كثرة الالحاح فلما عاد زوجها تظاهرت بالمرض فاحتار الزوج العليمي في مرضها واسبابه من شدة حبه لها، اما دعيج فإنه سأل الأم عن حينها المنتظرة فطلبت.

ان يرسل إليها أعتف حراسه مدججا بالسلاح، فلما جاء الحارس واسمه «اجر» أخفته في مكان من البيت ووضعت على الصاج قرصا حارا، ولما وصل العليمي أخذت القرص ووضعته على بطن حصة وتحته ثيابا وفوقه ثيابا لتقيها حرارته الشديدة، ثم أخذت تبكي بحرقة فلما رأى العليمي حال الأم ولمس حرارة حصة استاء وحزن كثيرا فقالت الأم لابد وان حصة مصابة بالعين ولا تعود لها الصحة إلا إذا طلقتها فتذهبعنها العين، فقال العليمي لو أعلم ان هذا ما سيحدث كنت طلقتها أما الآن فقد فات الأوان، فقالت له الأم إنما هي طلقة واحدة وعندما تنقضي عاودتها وهي زوجتك وليس لها غيرك، فاقتنع العليمي بكلام الأم واستجاب لطلبها وتطلق الطلاق، فقالت الأم:

اسمع يا «اجر»... فصارت كلمتها مثلا يضرب عند العامة، فظهر اجر وضرب العليمي ضربا مبرحا وطرده من البيت وحذره من العودة ثانية، ولم يجد العليمي إلا اللجوء إلى صديقه الأمير قطن طلبا للعون والمساعدة، حيث قال فيه قصيدة طويلة احتوت ايضا بعض الحكم ومنها هذه الأبيات:

مثلي ما يقيم بربع دار
بهادل وهو رجل ذهينا
ان جادلتهم مالوا جميع
ولا لي بالجماعة من يعينا
وكم من سفلة يعلك لسانه
تهزا بي وذا امر بطينا
فلا يموت ابو عشر بخمس
وهذا عندنا كله يقينا
ثلاث معاني لابد منهن
هن اللي فيها رجال مبينا
اكرام الضيف في عسر الليالي
وضرب بالسيوف لما بلينا
وكل الرجال بأسماهم رجال
ولا عم بالمراجل متينا
فيهم رجال وفيهم رذال
وخيار الرجال المتحينا
ولا تمدح رجال بكثر المال
ولا تذمهم في قل شينا

ثم استعد الأمير قطن لنجدته ومساعدته بما يحتاجه من المال واعتذر عن مساعدته بالرجال لأن لا سلطة له على أهل نجد، فأقنعه العليمي أن يرافقه برجاله وكأنه سائح وهناك يتم تدبير خطة لاختطاف المراة بدون قتال، فلما وصلوا إلى العيينة اخفى الأمير قطن رجاله في مكان خارج البلدة وذهب العليمي إلى بيت حصة واوصى اصحابه ان لم يرجع قبل الصباح ان يذهبوا، وكان زواج دعيج من حصة في هذه الليلة فاختبأ العليمي في المنزل المخصص لدخول العريسين ورأى ان حصة اخذت تبكي حين مد دعيج يده نحوها وكانت تتحسر على ابن عمها ومنعت دعيج من الاقتراب منها ولما يئس منها قال لها «الزمان طويل ويرضيك» ثم نام فخرج العليمي من مخبئه وقتل دعيج وهرب بحصة، وقبل ان يصل لقطن ورجاله طلب من حصة ان تلطخ قدميها وساقيها واطراف يديها بما يشين ما يظهر منها عند ركوبها على الذلول حتى لا تفتن الأمير قطن ورجاله بجمالها الصارخ، وعندما رأى القوم حصة بهذا الشكل القبيح عائبوا الأمير قطن لأن هذه المرأة الدميمة لا تستحق كل هذه المخاطرة من اجلها، فأمرهم قطن بأن يتسابقوا على الهجن وفهم العليمي غايته فهمس في اذن حصة بأن تكشف شيئا من وجهها لقطن ليغدره، فلما راها قطن بهت من جمالها وخاف من الفتنة ولما وصلوا إلى بلادهم طلب من العليمي ان ينزل بعيدا عنه وصارحه بخشيته ان يفتتن بزوجته وتميل نفسه لها فيفسد معروفه.

الفجر

شعرية الأمكنة

■ المكان.. لا اقصد به الفضاء الهندسي الجغرافي كما يفسره ابو الهندسة إقليدس.. ليكون فضاء طوبوغرافيا بل الفضاء المكاني الذي سنبحر في أعماقه هو المكان بوصفه فضاء شعريا، نفسيا، ووجدانيا.. وكل ما تمثله الشعرية في المكان كفضاء يستعمله الشاعر في شعره.. ما يهمني هو ان انطرق للمكان ببعده الشعري والشعرية عند الشاعر.. ومن هذا المنطلق نبحر في ماهية المكان في شعره- محمود الحليبي.

إذا تتبعنا شعر هذا الشاعر المبدع سنجد ان المكان عنده ليس مكانا جغرافيا ماديا ووجوديا بل هو مكان فني وشعري بالدرجة الأولى.. فجمالية المكان لا تؤسس على الجمالية المادية في الوصف بل ترتكز بالخصوص - في رأيي البسيط - على ما يحمله المكان من معان نفسية وروحية ووجدانية.. فمثلا نجد الشاعر يستعمل مفردات للمكان في شعره مثل: «البحر، المقهى، المدينة، الشاطئ، الحديقة، العش، الحقول، الشوارع، المشاوير، الضفاف، الصحراء، البيداء، الخيمة، الجسر...»، كل هذه الأمكنة تحيلنا إلى شعرية باذخة لو تمعنا النظر فيها.. فحين يقول في قصيدة الأسطورة مثلا:

ستخبرك المدينة عن حنيني
لأرض لم أجد فيها سمايا
وتنبئك الشوارع عن خطايا
وعن عينيتسافر في الزوايا
وتهديك الحدائق لحنشوقي
فكم أهديت مغناها غنايا
ستروينى مقاهيها فأصفى

فإن بها لجلساتي حكايا

نرى هنا مدى الشعرية التي تميز بها المكان في شعر هذا الشاعر المبدع فقد جعل المدينة رسولا بينه وبين حبيبته تخبرها بعظم حنينه إليها.. المدينة أضفى عليها صفة الحركة والذاتية لتكون ذاتا تتنفس الوعي والإدراك لتنقل الأخبار للحبيبة.. لقد سكب في المدينة حسا وجدانيا يتلمسه القارئ في عذوبة الكلمة ذات الدلالة الرمزية المتقنة ليجعله يندمج مع فضاء المكان وكأنه كائن تدب فيه الحياة..

وكذا مع باقي الأمكنة «الشوارع، تنبئك الشوارع عن خطايا، الزوايا، وعن عيني تسافر في الزوايا، الشواطئ: سلي عني شواطئها، المقاهي: ستروينى مقاهيها فأصفي... لجلساتي حكايا».

حتى المقاهي اخرجها من حيز مكاني جامد ليسكب في قالبها اللامتحرك حركية ذات خفقة وجدانية فتتحول من مكان مغلق ومحاصر بحدود هندسية طبوغرافية إلى فضاء رحب يستطيع أن يحكي ويروي ما كان يفعله الشاعر - يمثل القصيدة - وهو متواجد في حيزها المكاني للحبيبة.. تروي المقاهي لمعشوقته حركاته وسكناته وماجرى في جلساته فيها..

إنه ينقل ذهن القارئ من رؤية ومفهوم المقاهي كفضاء جغرافي بحت صاخب وفيه من الثرثرة الكثيرومن الضجيج الأكثر إلى مكان رومانسي يتدفق أحاسيس ويعي ما جرى للشاعر فتتحول هذه المقاهي إلى رسول مابين الشاعر ومعشوقته.. فتنساب في الذاكرة صورة توقف تضادا بين المفهومين.. مفهوم المقاهي كمكان جغرافي والمقاهي كمكان نفسي وجداني يتحرك بحركية الشعرية التي يضفيها الشاعرعلى الأمكنة في قصائده.

امثلة اخرى في قصيدة الحب البدوي

لو بنى الحب في القلوب ديارا
لبنى لي على فؤادي مدينة!

وفي قصيدة في الرمل حمى

أمشي وفي الرمل حمى والطريق به
شلاء ترسف في قيد وإغماء

وكذلك قصيدة الفرس الهاربة

كيف المسافات انتهت بسهولة
وقطعت كل حواجزي وسدودي؟
إني لأجلك قد حرست مدينتي
وبثثت فيها أعيني وجنودي
ونصبت فيها من ضلوعي قرفة
ترعاك: إني رحت كان جنودي
ورعيتها بحشاشتي وخدودي

في الأبيات الأخيرة من قصيدة الفرس الهاربة نجد تكثيفا رائعا لشعرية المكان والذي يعكس عبر مرآة الذات الشاعرة مدى الحيرة والقلق والخوف والجزع الذي يصاحبها من بداية القصيدة إلى مشارف نهايتها.. إذ تتحول الأمكنة «المدينة، الشوارع، السدود، الأرصفة، الضلوع» إلى محرقة للشاعر ترهقه حد الشعور بالاحتضار عند هروب معشوقته - الفرس -.. الشاعر قد رسم بألوان الطيف شعرية الأمكنة التي حرص وأصر وجاهد، ولعب على أن تكون أمكنة يتدفق فيها.. الدفء، الطمأنينة، الأمن والأمان على ذات المعشوقة التي هربت - الفرس - لكن مفهوم الأمكنة لدى ذات المعشوقة مضاد ومغاير لمفهوم الذات العاشقة - الشاعر- فهي هروبت وهربت لأنها رأت - رؤية ذهنية ووجدانية - أن الأمكنة بدون خيالها ورفيقها باردة وموحشة ولا أمان فيها وذلك حين شعرت أن الشاعر - فارسها وخيالها - قد تخلى عنها حين أطلق عنانها وهما يسيران جنبا إلى جنب..

- ثم إن نفسي حدثتني - اتكاء على طول عهدي بها وعهدها بي - أن أسايرها بلا عنان فخليتها ، المقدمة التي أرفقها الشاعر مع القصيدة.

لقد تعبّر مفهوم المكان من مجرد شارع وسدود وأرصفة ليصبح قطعة فنية شعرية يتلمسها القارئ في عذوبة الكلمات الدالة على الرمزية المتقنة فيتفاعل - القارئ - مع المكان ويدرك مدى قدرة الشاعر على استنطاق هذه الأمكنة وتحويلها من مكان طبوغرافي إلى فضاء رحب نفسي ووجداني، وفي الختام يهمس المكان بهذه الأبيات:

أسكن الأضياء في حَيّ الرؤى
وأضيء حين يغزوني الغسق
تجديني مثل بلبول الجسا،
أغفى فوق عنقود العنبا

فجر عبدالله

والدروب رحلت بك

يوم صديت عني مانزفت الدموع
احمر الدم هليته بعد صدتك
ليه تبعد وتتركني بحال يروع
وانت ماجابك الا نظرة شدتك
إرحم اللي خفق يبغاك بين الضلوع
كل مافيه جالك طامع بمدتك
والله اني على شوفتك اظما واجوع
لكن حضوضي القشرى كذا لدتك
امتهنت الغياب وصرت فعلا قطوع
والدروب رحلت بك عني وحدتك
كل مابي ينادي لك إذا لك سموع
إرجع ارجوك ناصر منتظر ردتك

ناصر الرياحي

معيار

الشعر النبطي وتاريخ المرأة في نجد

■ اطلعت قبل أيام على كتاب بعنوان «المرأة في نجد، وضعها ودورها: 1200- 1351هـ/ 1786 1932م» من تأليف الدكتورة دلال مخلد الحربي، وهي أستاذة التاريخ المعروفة التي أبدعت في تتبع تاريخ المرأة في نجد خاصة، ومن ذلك كتابها المعروف «نساء شهيرات من نجد» الذي ترجمت فيه لـ52 شخصية من نساء نجد، ودراستها «إسهام المرأة في وقف الكتب في منطقة نجد» الذي قدمت فيه معلومات عن إسهام المرأة في الجانب التعليمي والثقافي، وأبحاثها الأخرى عن «الأميرة نورة بنت عبدالرحمن» أو «فاطمة السبهان» أو «غالية البغمية» وغيرها.

الدكتورة دلال في كتابها الأخير أكدت أهمية الشعر النبطي كمصدر لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعية في نجد خاصة وفي الجزيرة العربية عامة، وبالذات في عصور العامية، وهذا أمر يجب أن يعيه كل باحث جاد ومؤرخ حاذق ومن المزالق التي تقع فيها العديد من الدراسات الأكاديمية تجاوزها الشعر النبطي وعدم استشعار دوره بسبب ضبابية الرؤية حوله الناتجة من عقدة النخبوية التي يتعامل بها الأكاديميون مع آدابنا الشعبية.

أما في كتاب «المرأة في نجد» فقد حضر الشعر النبطي حضوراً فعالاً، حيث استعانت المؤلفة بأكثر من 100 بيت من الشعر في هذا الكتاب للدلالة على نواح مختلفة وجوانب متعددة، ولفت نظري أن المؤلفة حين تجد صعوبة في فهم بعض الأبيات فإنها لا تتحرج من سؤال المتخصصين. وقد ظهر اعتمادها على الأستاذ عبدالرحمن السويداء في شرح بعض الأبيات، وهذه طريقة علمية حضارية تقطع الخط على من يتذرعون بصعوبة فهم هذا الشعر والتعامل معه، والحقيقة أن ذلك مما يحمد للدكتورة الفاضلة، بل يدل على وعيها وثقتها في نفسها والتزامها الأمانة العلمية.

جاء الكتاب في أربعة فصول؛ الفصل الأول عن بيئة وتكوين المجتمع النجدي، والفصل الثاني في الإطار الأسري للمرأة، والفصل الثالث في الإطار العملي للمرأة، أما الفصل الرابع فكان حول إسهام المرأة في الحياة العامة. وقد حضر الشعر في كل الفصول، ولكنه تجلى أكثر في موضوع تأثير البيئة في شخصية المرأة وحياتها، وفي موضوع العلاقة الزوجية، حيث ورد عدد من مرثيات الأزواج في زوجاتهم كمرثية الفهيد في زوجته مطيرة ومرثية ابن لعبون ومحمد بن مهدي وناصر بن قرملة. وكذلك تجلى الشعر في موضوع العادات والتقاليد.

وقد استطاعت المؤلفة بمنهجها العلمي الرصين أن تدحض الأقوال الجائرة عن تخلف المرأة النجدية أو ظلمها، بل أثبتت من خلال الوثائق بأن المرأة كانت ملتحمة في نسيج المجتمع وتقوم بدورها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وتحظى بالتقدير والاحترام وتملك حرية التصرف في مالها والدفاع عن حقوقها.

وكنت أتمنى من الدكتورة الفاضلة أن تهتم بتشكيل أبيات الشعر النبطي لتكسبها قيمة علمية إضافية، لكي تساعد النخبة المثقفة في أبراجها العاجية على تهجئتها الصحيحة، فتكون بذلك قد ضربت عصفورين بحجر واحد، ورغم أني أزعم أن الكتاب إضافة نوعية ومتميزة للمكتبة التاريخية، إلا أني لفت نظر الدكتورة إلى أنه لا ينبغي التسليم التام بمعلومات المستشرقين في النواحي الاجتماعية الذين قد ينظرون إلى المجتمع بعين رمدة، كما زمقت معلومة تاريخية صغيرة شردت في ص 106 بسبب أبي سعود!!

قاسم الرويس